الإيمان والتسامح من منظور مسيحي بروتستانتي

فرانك أوتفريد يولاي ■

مدخل إلى موضوع التسامح من منظور مسيحي

إن التسامح يُعدُّ شعاراً خاصاً بالنسبة إلى الكنائس البروتستانتية بألمانيا عام 2013م. لماذا هو كذلك؟ لأننا نمضي نحو عام 2017م، وللذكرى، فإن هذه هي المناسبة التي سوف يحتفي فيها المسيحيون البروتستانت بالذكرى الخمسمائة لمولد حركة الإصلاح الديني. ولقد شكل هذا الأمر حدثاً جللاً جدد أمر الكنيسة تجديداً، إلا أنه سجل أيضاً بداية انقسام المسيحيين بالغرب إلى بروتستانتيين وكاثوليكيين، وبقي هذا الانقسام قائماً إلى أيامنا هذه، غير أن المسيحيين بألمانيا المنتمين إلى الكنيسة معاً أمسوا يشتغلون اليوم جنباً إلى جنب.

وفي سياق الاستعدادات لذكرى 2017م هذه، وضعت الكنيسة الإنجيلية بألمانيا كل سنة من السنوات القادمة المتبقية لحلول الذكرى تحت شعار خاص. والموضوع الذي وقع الاختيار عليه لهذا العام هو: «الإصلاح الديني والتسامح»، ونحن نودُّ في الكنائس البروتستانتية أن نفكر في موضوع التسامح في ألمانيا المتغيّرة

■ رئيس أساقفة الكنيسة البروتستانتية، ألمانيا.

وفـي المجتمع الأوروبي وفـي العالم برمته، كما نروم فعـل ذلك من زاوية الإيمان الديني. فما أسـاس التسـامح ها هنا في إيماننا؟ ومـا الذي يعنيه ذلك بالقياس إلى صلتنا بالمسلمين؟

ما الأمر الذي تغيّر في عالمنا؟ وما هو الإطار الذي صرنا نشـتغل فيه الآن؟

عُمان مجتمع بحري شديد العراقة، وللبلد صلاتٌ تضرب بعمقٍ في التاريخ مع كلٍّ من إفريقيا والهند والشرق الأقصى

اسـمحوا لي أن أشـرع في الكلام عن عُمان. ذلك أنـه باعتبار عُمـان مجتمعـاً بحرياً شـديد العراقة، فإن لهذا البلد صـلات تضرب بعمق في التاريـخ مـع كل مـن إفريقيـا والهند والشـرق الأقصـى، فضلاً علـى أن لهـا صـلات ـ بطبيعة الحـال ـ ببقيـة البلـدان الإسـلامية، وبأوروبـا، وبأمريكا. والحـال أنه مـا بعُمان وحدهـا؛ وإنما بالعالـم بأسـره حدثت تحـولات عميقة شـهدتها الأربعون سـنة الأخيرة مسّـت الحركية والتواصل والتفاعل السياسي والديني، وقد سُمِّيت بالجملة باسم «العولمة»، وإن علينا ألا نسيء تقدير هذه التحولات.

هـذا وقد أمسـينا نلفـي فـي العالـم بأسـره أن الثقافـات والجهات والمعتقدات التي كانـت في ما قَبْلُ لا تعلم بعضها عن بعضها الآخر شـيئاً، أضحت تتجه بعيداً إلى تجاوز ما دون عالمها المخصوص والتطلع إلى آفاق غير آفاقها المحـدودة. وبالفعل، باتت هي تلاحظ وجـود الآخرين، وتتّصل بهم، وتتناقش معهم، وتطرح أسئلة عن معتقداتهم، وتستفسر عن مقاصدهم المشتركة، وتتحدث عن اختلافاتهم.

وهكذا، أمسينا نكتشف الآن أن في البيت الكبير الذي هو العالم الذي نحيا فيه توجد غرف كثيرة، على أننا جميعـاً نحيا في هذا البيت الذي هو بيتنا الوحيـد، وإنه لبمقدرتنا ـ بـل ومن المحتم علينا أيضـاً ـ ألا يتلافى بعضنا بعضاً وألا يتحاشاه ـ وإلا فإنه سـوف يكون علينا أن نظل قابعين في غرفتنا في كل الأوقات لا نبرحها أبداً.

وقد أضحينا على وعي تام بأن «العولمة» ـ بجميع آثارها الجانبية ـ أمر مقلق بالنسبة إلى العديد من الناس. وكيف لا يكون الأمر كذلك وهم شاهدون على صدام بين العديد من الصور والعوائد والأحكام المسبقة الثقافية والدينية المتنوعة؟

إن البعض لا يروم قطعاً أن يعرِّض إلى الخطر الأسسَ الآمنةَ التي شكلت دعامته لأجيال عديدة مديدة. ولهذا السبب أنت تراه ينكمش على نفسه انكماشاً، ولا يلبث أن يَكُون ردُّ فعله قائماً على العنف والرفض، بل يصير حتى من ذوي العقول الضيقة. هذا بينما ترى البعض الآخر ينفتح انفتاحاً واسعاً، ويَكُون على أتم استعداد لكي يتشرب من كل أمر جديد، غير أنه يخاطر من جهته بإمكان أن ينسى تقليده الخاص، وأن يفقد قيمه، وأن يعمى عن توجهاته.

ومن جهتنا نحن نميل شيئاً فشيئاً إلى إدراك العالم ـ بمجرياته الطيبة والسيئة سواء بسواء ـ على أنه أُسرة بشرية واحدة. والحال أنه في العديد من أقطار العالم تلعب الأديان دوراً خاصاً بهذا الشأن.

ومن شأن الناس ـ من أهل الديانات ـ أنهم يرومون المساعدة على تشكيل العالم، وعلى الدفاع عن القيم والتوجهات. وهم يضطلعون بمسؤولية خاصة في أزمنة التحول الكبير هذه. إذ عليهم أن يبرزوا إمكانات صناعة السلام، وإمكانات الإيمان التصالحية، وذلك حتى يتمكن الناس من التوحد بغاية إنشاء بيت يكون للبشرية قاطبة.

ما من حديث جاد إلا وشأنه أن يكون حديث البعض للبعض وليس حديث البعض عن البعض، وأي حديث جاد لا بد أن يعني الوعي بخلفية ما نتحدث عنه، ولا بد كذلك أن يستدعي الوضوح في كل ما يخص تصوراتنا المسبقة وآراءنا السائدة عن الآخر.

اعتدنا في بلدي على ألا نرى من المسلمين إلا القليل، وبطبيعة الحال فقد وُجد في هذا المجتمع على وجه الدوام طلبة من البلدان الإسلامية وأعضاء في جماعة رجال الأعمال وزوار آخرون. لكن ما كان من المعتاد

ـ اللهم إلا في ما ندر ـ لقاء مسلم. على أن هذا ليس يمنع من القول: كانت لنا تصورات ذهنية استبطناها عن المسلمين والإسلام كنا نعيد إنتاجها في العالم البراني الخارجي.

في دروس التاريخ عهدَ الصبا لطالما بلغ إلى مسامعي أن المسيحية إنما تم إنقاذها بأوروبا في معركة تور ـ بواتييه (723 بعد الميلاد)، وذلك بعد أن تم الانتصار على العرب المسلمين، فما كان مني إلا أن تشكَّلت في ذهني صورة عن الإسلام بوسمه خطراً مهدداً مرعباً.

نحن نميل شيئاً فشيئاً إلى إدراك العالم بمجرياته الطيبة والسيئة سواء بسواء على أنه أسرة بشرية واحدة. والحال أنه في العديد من أقطار العالم تلعب الأديان دوراً خاصاً بهذا الشأن

ولما كنت أدرس بالجامعة ـ بعد مضي سنوات، في ڤيينا، عاصمة النمسا ـ صدمت بالإشارة المتكررة إلى المعارض والنصب المقامة لتخليد ذكرى حصار الأتراك المزدوج للمدينة في القرنين 16 و17 الميلاديين (1529 و1683). هذا وكان المعلقون من الذي عاصروا تلك الأحداث ـ بمن فيهم مصلحنا الديني مارتن لوثر ـ يتحدّثون عن الخطر الداهم من الأتراك بنفس النبرة [التخويفية].

على أنه ما كان الخوف والقلق هما ما نميا عن هذا الخطر، ففي نفسها، كانت الحروب والصراعات يصاحبها لقاء ثقافي جديد ما كان معهوداً من ذي قبل أدى إلى حماسة للشرق، وعرف تحت مسمى «الاستشراق». وأكثر من ثمرة لهذا اللقاء الثقافي صارت اليوم جزءًا لا يتجزأ من ثقافتنا، وذلك بدءًا بالعلوم العربية الإسلامية وانتهاءً بالقهوة وبمرافق الحمامات العمومية الرائعة.

في أيام فتوتي، كنتُ قد قرأتُ العديد من الكتب التي ألفها الروائي الألماني كارل ماي (1842 - 1912) وكان الرجل مشهوراً في البلدة التي أتيت منها، وكان قد كتب عن مغامرات الهنود الحمر في أقصى الغرب، ولكنه كتب أيضاً عن قارة بن نمسي، الذي خاض مغامرات عديدة في العالم

العربي إبان القرن التاسع عشر الميلادي مع صاحبه الحاج عمر أَلِف. وبالمناسبة، فإنه حدث لي أن اطلعت على أول عبارات القرآن التي أمكنني أن أطلع عليها من خلال أحد كتب كارل ماي هذا. وبمعنى ما من المعاني، فإن الأحاديث الممتعة التي كانت تدور بين كارة بن نمسي والحاج ألف عمر كانت تنتهي إلى حوار بين الأديان والثقافات. ومهما قيل عن كارل ماي وأوصافه، فإن الصورة التي رسمها لي [عن الإسلام والمسلمين] كانت مختلفة عن تلك التي رسمها لي أستاذي في التاريخ.

وبعد أن غادرت المدرسة، سافرت مع أصحاب لي إلى الأندلس، وهناك قرأت عن التاريخ وأعجبت بالثقافة العربية الأندلسية، وبالوجه العلمي للإسلام، وبدوره بحسبانه قنطرة وصل بين الشرق والغرب، وكانت تلك الحقبة بحق العصر الذهبي للأندلس (ومن شأن كل من وقف في ساحة الأسود بقصر الحمراء أن يدرك بحق ما أعنيه). إن زفرات أبي عبد الله (أبي عبد الله محمد الثاني عشر) ـ آخر العرب الذين غادروا غرناطة ـ ما زالت ترن في أذني. وإن الصِّلات ذات الأوجه المتعددة بين الشرق والغرب المسيحي (والذي كان بدوره ينغرس أكثر فأكثر في وحل الصراعات) قد انعكست في آدابنا انعكاساً العظيم (عَنَيْتُ شاعرنا الكبير ولفغانغ فون غوته الذي جمعت أشعاره في الديوان الغربي والديوان الشرقي، كما عنيت أيضاً غوتليب إفرائيم ليسنغ الذي استعمل أمثولة الخواتم في [مسرحيته] ناتان الحكيم).

كل هذه المرويات المقتضبة الملتقطة من حياتي الشخصية إنما كان القصد من إيرادها أن أُبَيِّنَ لكم كيف تَبَدَّى الإسلام والعالم العربي في حياة شخص من أوروبا الوسطى. وكل أفراد بعثتي الصغيرة هذه لربما تكون لهم صور وتصورات أخر نظيرة.

وأفترض أن الآخر لديه صوراً عن المسيحية مثلاً وعن المسيحيين، وحتى عن الأوروبيين أنفسهم. ومن المهم أن نعرف شيئاً عن هذه الصور حتى نستطيع على أن نتحاور بنزاهة، ونستعد الاستعداد لإجراء الحوار في ما بيننا.

فما الذي صار إليه الوضع اليوم في بلدنا؟

اختلفت الصورة اليوم اختلافاً شـديداً؛ ذلك أن حوالى 5 بالمائة من سكان ألمانيا يعلنون أنهم يدينون بالإسلام (وذلك ضمن حوالى 80 مليون من السـكان؛ بما يعني حوالى أربعة ملايين من الناس). والحال أن ثلثي هذه الملايين الأربعـة إنما هم أتـراك، والثلث الباقي أتى أساسـاً من البلدان العربيـة، وقد ارتبط بعضها ببعض، وأمسـينا يحيـا بعضنا إلى جانب البعض.

والحال أن هذا التقارب والتجاور في إطار العيش المشترك دفع بنا إلى مواجهة تحديات مسـتجدة، إذ صارت تبنى مسـاجد في بلد ما كان يوجد بهـا قديمـاً إلا الكنائس والبِيَع. وأمسـت معتقـدات مباينة تلتقي بعضها ببعض، وكل واحدة منها تعلن بقوة أنهـا تمتلك الحق في الوحي وسـلطة تمامه وكماله. وفضلاً على هذا، حدثت ثمـة امتزاجات ثقافية ووشائج تقاليد.

كيف يلاقي بعضنا بعضاً؟ وبوفق أية صورة نكون في الوقت نفسه أناس إيمان وأناس تسامح؟

قبل أن أقدم علـى خطوة أبعـد، أود أن أبدي ملاحظة؛ تـرى الكنائس بألمانيا ـ سـواء أكانت بروتسـتانتية أم كاثوليكية ـ أن من مسـؤوليتها أن يستطيع المسلمون أن يعيشوا إيمانهم وأن ينظموه بحسبانهم جيراناً يحسنون جوار المسـيحيين. وهـذا يقتضي عقد لقـاءات متبادلة وزيـارات للكنائس والمسـاجد وتأليـف كتب مـن قبيل «مـا الذي ينبغـي لـك أن تعرفه عن الإسلام؟» وما شابه هذه الأمور.

وبطبيعة الحال، فهم يأملون في أن يكون نموذج العيش المشترك وحسن الجوار هـذا يمكن أن يتحقّق في دول أخرى تكون فيها الغالبية للمسـلمين. وهو الأمر الذي يستدعي التسامح.

لكن الآن: التسامح والإيمان، الإيمان والتسامح. ما التعريف؟

عندمـــا أتحدث عن التســـامح أعني بـــه موقفاً نشـــيطاً يدافع عن حق الأديان الأخرى في أن تحيا في مجتمع، وأن يتم التعبير بحرية عن وجهات النظر الأخرى.

لكن، لا يمكن أن يكون التسامح بلا حد، إذ ثمة شعار يقول: لا تسامح مع المواقف التي تشيع الكراهية والعنف والعنصرية وبغض الأجانب.

وفـــي ألمانيا كذلك، فإن مفهوم التســـامح يفهم ويؤول بطرق شـــتى، ذلك أن أصل لفظ «التســـامح» إنما ينحدر من الفعل اللاتيني «tolerare» الذي يعني حرفياً «احتمل» و«تحمّل». فمن شـــأني ـ بناءً على هذا المعنى الأولي ـ أن أتسامح مع شيء لا أقدر حقاً على تحمّله واحتماله. والحال أن ثمة أمـــراً يثوي خلف هذا الموقف مع ذلك، إذ ليـــس يتعلّق الأمر بالتعود على تحمل أمر لا يُحتمل أو عدم المبالاة بشخص، فليس ينبغي الخلط بين التســـامح والاعتباط، لا، ولا القبول بفكـــرة «تعدد الحقائـــق» بدعوى أن «الكل على حق».

إنما المشكلة تتعلّق بإعلان المواقف والجمود عليها، لا لشيء إلا لمجرد التصارع من أجل الحقائق والمقاصد، وأحياناً لمجرد مواجهة بعضنا لبعض، وذلك من دون أن نحدث تقدماً أو فتحاً، ومن غير البحث عن الســـير قدماً نحو مزيد مـــن الفهم. يتعلّق الأمر بمســـألة الاحترام، حتـــى إن نحن فهمنا بعض قناعـــات الغير. لكن دعوني ألـــح على أن هذا الاحترام من شـــأنه أن يســـري عندما لا تكون القناعـــات والمواقف تدعو إلى بغـــض الأجانب وإلى العنف وإلى الإرهاب.

ونحن إنما نريد أن نعيش في عالم من الاختلاف والتضامن معاً. وعلى الأديان ـ على وجه التخصيـــص ـ أن تبدي كيف أن الوعـــي بحقيقة الإيمان يمكن أن يرتبط ليس بالتســـامح فحســـب، وإنما بالتفاهم المشترك أيضاً، وبالاحترام تجاه الغير.

ليس هذا وقت تقديم دراسة تاريخية موسعة عن كيف عالجت اليهودية والمسيحية والإســـلام التفاعل بين الإيمان وعدم الإيمان، أو كيف ربطت هي

بين دعواها امتلاك الحق والانفتاح على الآخرين، أو كيف آلفت بين الوفاء لتقليدها الخاص والتسامح. ففي المجال الذي انتشرت فيه المسيحية، سرعان ما تم درك حدود التسامح ما إن صارت المسيحية ديانة دولة. وإن العديد من معتقدات وعقائد الكنيسة الأولى إنما كان القصد منها مقاومة أولئك القوم الذين سُموا «الهراطقة».

نريد أن نعيش في عالم من الاختلاف ومن التضامن معاً. ويكون على أهل الأديان أن يُثبتوا أنّ الوعي بحقيقة الإيمان يمكن أن يرتبط ليس بالتسامح فحسب، وإنما بالتفاهم المشترك أيضاً

لكن حتى في العصر الوسيط ـ وبالذات في القرنين 12 و13 الميلاديين ـ كان النظام الاجتماعي والديني متعالقين أشدَّ ما يكون التعالُق، ذلك أن أولئك الذين طردتهم الكنيسة وأدانتهم ما عاد لهم من مكان في المجتمع. وما واجه الناس في الغرب واقعة أنهم أمام كنيستين مسيحيتين: بروتستانتية وكاثوليكية (بينما كانت الكنائس الأُرثوذكسية الشرقية بعيدة) إلا على عهد الإصلاح الديني عام 1517م. وها هنا أيضاً ما كان من هامش للتسامح يمكن تصوره. وبعد صراعات مريرة مديدة، تم اتخاذ القرار بأن على الملك أو الأمير أن يختار الديانة التي عليه أن يتبناها، وأن على سكان البلد إما أن يقبلوا بالنحلة التي ينتحلها الحاكم أو أن يغادروا البلد، وما زال يمكنك أن تشاهد في ألمانيا حتى اليوم آثار هذه القرارات، إذ ثمة مناطق ذات غالبية بروتستانتية، وأخرى ذات غالبية كاثوليكية.

على أن اشتعال مزيد من الحروب، وظهور نزعات جديدة في تاريخ الأفكار، والتحولات التي شهد عليها القرن العشرون، فضلاً عن النزوع إلى العولمة وإلى عالم متعدد اليوم؛ كل هذه الأمور كان من شأنها أن أدت إلى أخذ حرية الاعتقاد وحرية التدين في الاعتبار، وما زال الاعتبار يزداد حتى صارتا ذواتي قيمة عالية لدى كل كائن بشري فرد. لقد صار من كرامة كل البشر ـ بما أنهم خُلقوا لكي يكونوا أبناء الله ـ أن تكون لهم المقدرة على أن يقرروا أمرهم بحرية.

وفي أوروبا ومناطق أخرى من العالم، ترى درجة عالية من تعدد المعتقدات الدينية وسبل العيش، كما أنك تراها اتخذت طابعاً فردياً ولهذا الأمر فوائد عظيمة. غير أن هذا يمكن أن يؤدي أيضاً إلى خطر ذبول القيم المشتركة أو التوجهات، وإلى الحاجة إلى ضرورة إعادة اكتشافها على الدوام عبر النقاشات الدائرة داخل مجتمعنا. لقد أمسينا نحيا بوفق شروط مسبقة ليس يمكننا أن نمنحها بأنفسنا لأنفسنا، على حد تعبير أحد فقهاء القانون الدستوري الألماني ـ إرنست فولفغانغ بوكنفورده ـ ذات مرة. والحال أن من شأن إثارة الانتباه إلى هذه الشروط الروحية والومضات اللاهوتية أن يشكل مهمة بالغة القيمة بالنسبة إلى كنائس بلدنا، فضلاً على أهميته حتى بالنسبة إلى الأديان الأخرى[1].

كيف يكون الإيمان المسيحي مستعداً للحفاظ على معتقداته الأساسية وفي الوقت نفسه ممارساً للتسامح؟ **ما الذي يعنيه التسامح البروتستانتي؟**

1 ـ التسامح في التوراة:

نحن المسيحيين ندعي أننا متسامحون، لكن ما جذور تسامحنا المسيحي؟ للإجابة عن هذا التساؤل المتعلّق بالتسامح أود أن أعود إلى التوراة لبرهة من الزمن. فإن فعلنا ذلك ألفينا أن لفظة «التسامح» لا تلعب دوراً محورياً في تقليدي قسمي العهد القديم [التوراة بمعناه المخصوص] والعهد الجديد [الإنجيل]. ومع هذا، فإن «معنى» التسامح وارد فيهما (بالمعنى وليس باللفظ) المرة تلو المرة، إذ نكتشف عبارات توراتية عدة

1 ـ «أمست الدولة الحرة الدنيوية تحيا على شروط مسبقة لا يمكنها هي نفسها أن تضمنها. وهو الرهان الأكبر الذي راهنت عليه باسم الحرية. وباعتبارها دولة حرة، فإنه ليس يمكن أن تستمر في الحياة، من جهة، اللهم إلا إن كانت الحرية التي تهبها لمواطنيها يحكمها من الداخل الجوهر الأخلاقي للفرد وانسجام الجماعة وتناغمها. ومن جهة أخرى، فإنه ليس يمكنها أن تضمن هذه القوى الداخلية من تلقاء نفسها وبقوتها الخاصة؛ أي باستعمال وسائل قوة القانون وسلطة الدولة، وذلك من غير أن تتخلى عن حريتها و ـ على المستوى الدنيوي ـ من دون أن تسقط في نزعة الحكم الاستبدادية المطلقة التي تقود إلى حروب أهلية دينية»: إرنست وولفغانغ بوكنفورده: الدولة والمجتمع والحرية، 1976، ص 60.

تحض على الصبر والغفران والرحمة والعفو والخيرية واللطف والقبول؛ وكل هذه المعاني تجري مجرى معنى التسامح، والتسامح هو جوابنا البشري عن محبة الرب لمخلوقاته. إذ الرب يقبلنا نحن معشر الكائنات البشرية، واللطف الإلهي يسري على الجميع، بما أن كل مخلوقات الرب خلقت على صورته. وإنه لرحمن بها وإنه لرحيم. وهذا الأمر يؤدى بنا إلى إقامة تمييز دقيق: من شأن «التسامح الرباني» أن يترتب عن رعاية الرب غير المشروطة للأشخاص الذين ينكرون ذاته، وعن محبته إياهم. غير أنه ينبغي التنبيه ها هنا ـ وهنا مكمن الفرق ـ إلى أن هذا الأمر لا يقتضي التبخيس من شأن خطاياهم أو موافقتهم على هذه الخطايا. إن مغفرة الله تسري على الأشخاص الذين يعادون الرب وليس على عدائهم الصريح (من شأن التسامح أن يتعلّق بالشخص وليس بفعله). فهذا العداء مما ليس ينبغي أن «يتسامح» معه ـ أي أن يتم إقرارهم عليه أو القبول به منهم ـ وإنما هو مما ينبغي تجاوزه. وإن التوراة لتقيم التمييز بين الشخص من حيث هو شخص ـ وهو مقبول عند الرب سواء أكان ذكراً أم أنثى ـ وبين سلوكه الذي لن يتم التسامح معه إن هو «كان يهدد الحياة والمحبة».

إنّ التسامح هو جوابنا البشري عن محبة الرب لمخلوقاته. إذ الرب يقبلنا نحن معشر الكائنات البشرية، واللطف الإلهي يسري على الجميع، بما أنّ كل مخلوقات الرب خُلقت على صورته

ولنا أن ننظر في سيرة يسوع، فإنه كان مثالاً حيّاً مجسداً للتسامح! روي لنا عنه أنه التفت إلى أولئك الذين ما أظهروا التسامح قط ـ شأن رجال السامرة ونسائها ـ وقد اتهموا بأنهم كانوا يعيشون في ضلالة خارج شعب الرب، فكان أن عوملوا باستهجان شديد. ولكن يسوع استقبلهم من غير رأي مسبق منحاز؛ وضرب لقومه مثلاً أنه من بين كل الأشخاص، فإن السامري هو من عمل العمل الصالح والفعل السديد[1].

1 ـ يشير الأسقف هنا إلى ما ورد في إنجيل لوقا الإصحاح 10 الآيات 25 - 37: «25 واذا ناموسي قام يجربه قائلًا: يا معلم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية. 26 فقال له ما هو مكتوب في الناموس. =

لقد أعان السامري المحتاج؛ بينما آخرون ـ وكانوا يعدون أهل ديانة ـ ظلّوا على الطرف النقيض (إنجيل لوقا 10: 25-37). وهذا يظهر أن يسوع يمكن أن يجد نظيراً للسلوك القويم حتى لدى شخص يتم احتقاره وينتبذ. وثمة مثال آخر على تسامح يسوع: فقد جلس إلى الضيافة التي جلس إليها عشارون وخطاة (لوقا 5: 29-30). وهذا سلوك ينبغي النظر إليه على أنه متسامح؛ وذلك لأن جموع العشارين والخطاة كانوا مكروهين من لدن العديد من الناس، وقد طردوا من شعب الرب طرداً: العشارون لأنهم كانوا دوماً على صلة بالمال وبالأمم، بسبب من مهنتهم، والخطاة لأنه كان يعتقد بأنهم منبوذون من جانب الرب إلى أبد الآبدين، بسبب من خطاياهم. وقد أظهر يسوع التسامح هنا أيضاً مرة أخرى.

وهنا أيضاً يبدو لي أنه من الأهمية بمكان أن نفكر اليوم في أمر التسامح باستيحاء هذه القصص، ويتعلق الأمر بالطريقة التي دافع بها يسوع عن التسامح، إذ فعل ذلك في إطار التزام ودعوة، من غير أي إكراه. وقد وجه يسوع أعين الناس نحو الرب. وشجعهم على ألا يسيئوا الظن بالآخرين الذين يبدون غرباء أو غير معهودين، وألا يؤذوهم. وما أدانهم هو أبداً؛ وإنما بالضد من ذلك أعمل صوراً لوصفهم: إنما هم شبيه الشاة الضالة، ومثل الابن الضال، ونظير المرضى الذين يحتاجون إلى من يطببهم. وإذا ما كان تم التقليل من خطيئتهم كأنها محض لمم؛ إلا أنها صارت تظهر

= كيف تقرأ. 27 فأجاب وقال: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك وقريبك مثل نفسك. 28 فقال له بالصواب أجبت. افعل هذا فتحيا. 29 وأما هو فإذ أراد أن يبرر نفسه قال ليسوع ومن هو قريبي. 30 فأجاب يسوع وقال. إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا فوقع بين لصوص فعرّوه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت. 31 فعرض أن كاهناً نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. 32 وكذلك لاوي أيضاً إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله. 33 ولكن سامرياً مسافراً جاء إليه ولما رآه تحنن. 34 فتقدم وضمد جراحاته وصبَّ عليها زيتاً وخمراً واركبه على دابته واتى به إلى نزلٍ واعتنى به. 35 وفي الغد لما مضى اخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتن به ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك. 36 فأي هؤلاء الثلاثة ترى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص. 37 فقال الذي صنع معه الرحمة. فقال له يسوع اذهب أنت أيضاً واصنع هكذا [المترجم]].

الآن على ضوء مبدأ اللطف الإلهي. والمسألة هنا برمتها إنما هي مسألة النظر إلى الغير بعيون جديدة، ومواصلة اعتبار هذا الغير سواء أكان ذكراً أم أنثى بعيني الرب.

كلا ما كان يسوع الأرضي ويسوع المبعوث مجرد نموذج تاريخي للتسامح، وإنما كانا هما عماد كل مطلب مسيحي بالتسامح. وخلال فترة ما بعد المسيح؛ أي فترة الجماعات المسيحية الأولى، كان على أعضاء هذه الجماعات أن يواجهوا مسألة معرفة كيف يتعاملون مع الأعضاء الآخرين الذين فكروا بطريقة مخالفة وساروا على نحو مباين، أو اقترفوا ذنباً. فقد ورد في التوراة (إنجيل متّى 18) نداء إلى التسامح والرعاية لرعايا الكنيسة. وقد تمثل هذا النداء في مطلب أن يولي المرء الرعاية لبسطاء الناس وأن يكون سخياً وسمحاً. وهنا يمسي الأمر بَيِّنَا: ليس يصَيِّر التسامح الإيمان أمراً نسبياً؛ وإنما التسامح بالأوْلى ثمرة للإيمان. وهذا ينطبق على أولئك الذين يتصرفون اتجاه أولئك الذين يؤمنون بيسوع تصرفاً يقوم على النبذ والتهكم والكراهية. ويظهر هذا الأمر واضحاً في الوصية: «لكني أقول لكم: أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم. باركوا لاعنيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم» (لوقا 6: 27 - 28)؛ إذ ليس لك أن تتحاشى أولئك الذين ليس يمكنك أن تدافع عنهم بسبب من معتقداتهم وسلوكهم! وعلى الضد من ذلك أحسن إليهم، وجادلهم، وحاورهم! ولا تتفادى المشاكل الحساسة! لِمَ هذا الأمر صار ممكناً؟ تقدم لنا التوراة نفسها ـ ممثلاً في إنجيل لوقا ـ السبب في ذلك: لأن الرب منعم حتى على غير الشاكرين وعلى الأشرار (لوقا: 6، 35)، ولأننا نحن معشر الكائنات البشرية يسندنا الرب، ونحن قادرون على أكثر من مجرد «تحمل» الآخرين؛ بل يمكننا حتى أن ندعهم تكون لهم الكلمة الأخيرة. إن الرب «يعيننا ويقوينا على طاعة أمر يسوع»، وفي إطار هذه

لا يصَيِّر التسامح الإيمان أمراً نسبياً، وإنما التسامح بالأوْلى هو ثمرة الإيمان. وهذا ينطبق على أولئك الذين يتصرفون تجاه أولئك الذين يؤمنون تصرفاً يقوم على النبذ والتهكم والكراهية

الروح، فإن بولس الرسول دعانا إلى أن نبدي التسامح بعضنا تجاه بعض وقبول ببعضنا بعضاً: «اقْبَلُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا قَبِلَنَا، لِمَجْدِ اللّٰهِ» (بولس: رسالة إلى أهل رومية 15: 7). لقد دعانا بولس إلى احترام غيرنا حتى أكثر مما يكون علينا أن نحترم أنفسنا، ونحن إذ نفعل ذلك فما نكون في ذلك إلا متبعين لتعاليم المسيح. (رسالة بولس الرسول إلى أهل فيليبي 2: 3).

والحال أنه لن يكون تأملنا التوراتي هذا كاملاً ما لم نذهب لكي نلقي نظرة على نهاية العصر، فنحن الكائنات البشرية ليس من شأننا أن نفعل ذلك؛ وإنما الرب نفسه: «وسيمسح اللّٰه كل دمعة من عيونهم، والموت لا يكون في ما بعد». (سفر الرؤيا: 1).

2 ـ التسامح الحواري

عندما نتقصى هذا السبيل التوراتي، يقودنا مباشرة إلى موقف أحب أن أدعوه نشيطاً، هو موقف التسامح الحواري.

لسنا نمارس التسامح لأنه يبدو موقفاً ملائماً، ومن الناحية السياسية موقفاً حكيماً في زمن معين؛ بل حتى بوصفه تنازلاً لشروط التعددية. إنما بالضد نحن متسامحون لأننا تلقينا وعد الرب وتسويغه بوسمه فضاء حرية، ومن ثمة صرنا قمينين وراغبين في أن نحيا في الحوار مع الآخرين.

فما الذي يميز التسامح الحواري يا ترى؟

يحاول التسامح الحواري أن يستكشف الرأي الآخر وأن يفهمه، وليس يعني هذا بالضرورة أن نكون على وفاق على الرأي نفسه، كما يفترض ذلك عادة؛ ذلك أننا عندما ننخرط في حوار، فإن من شأن الإنسان المتسامح أن يتساءل: لماذا يا ترى يفكر الناس على هذا النحو؟ ولماذا يعبرون هم عن إيمانهم بهذه الطريقة وليس بتلك؟

إنما التسامح الحواري هو ـ إذا ما قبله الطرفان ـ نقاش على قدم الندية، وإن مجتمعنا والعالم من حوالينا ليحتاجان إلى مزيد من التسامح الحواري ـ وليس إلى أقل قدر منه. وليس باستطاعتي أن أكون

شريكاً في التسامح الحواري اللهم إلا إذا أنا علمت موقعي علم اليقين، وإننا لنصف وجهة نظرنا المسيحية بالعودة إلى التوراة: لقد قبلنا المسيح!

ومن ثمة، فإنه بدءًا من التسامح المتجذر في الإيمان، نبدي التزاماً ـ بوسمنا الكنيسة ـ باسم المسلمين في بلدنا. وهم أقلية، وعديد منهم يأتون إلى ألمانيا عمالاً مهاجرين. وما كانت منزلتهم الاجتماعية بالمنزلة الرفيعة في المجتمع الألماني. على أن سيرورات التحولات في هذا المجال نفسه قد بدأت بدايتها، وإن الكنائس لتدعم هذه السيرورات بقوة.

أين يكمن هذا الدعم؟ دعوني أقدم أمثلة من خلال خدمتي بصفتي أسقفاً:

- منذ سنوات قليلة مضت قام ثمة نقاش حول الترخيص للمسلمين بإلقاء كلمتهم في برنامج للإنترنت أقامته الإذاعة العمومية لمنطقة ڤيرتمبورغ. وبصفتي أسقفاً، بدا لي أن من العدل أن أناصر الفكرة. وها نحن أولاء اليوم ـ بعد مضي أكثر من عشر سنوات ـ يفتخر الناس بشتوتغارت بهذا البرنامج. وإنه لأمر حسن بالنظر إلى عيشنا المشترك وبالنظر إلى الحوار في ما بيننا، أَمَّا وقتها فقد كان هذا الأمر لا يزال موضع نقاش.
- تشدد كنيستنا تشديداً على التربية وعلى الإعداد والتكوين، لا سيما في مجال اللاهوت، ويتم تدريس اللاهوت المسيحي في العديد من الجامعات. وجامعة توبنغن ـ قرب شتوتغارت ـ بكلية اللاهوت البروتستانتية التابعة لها معروفة، كما هي معروفة بالكلية التي أقامتها لتدريس اللاهوت الكاثوليكي. ومؤخراً أُقيم معهد لعلم الكلام الإسلامي بتوبنغن. ولقد دعم البروفيسور شتيفان شراينه هذه المبادرة دعماً كبيراً. أما من جهتي الشخصية، فإنني أنا وكنيستي دعمنا هذه العملية لأنا نأمل أن يؤدي ذلك إلى بلوغ مستوى من الحوار يكون جيداً. ولهذا الباعث، فإنه يلزم أن يتم تدريس علم الكلام الإسلامي بألمانيا، هكذا أفهم «التسامح الحواري».

- لــن أمدد هذه السلســلة مــن الأمثلة بلا نهايــة، فالكثير مــن الأفراد بكنيســتنا يبذلون جهــداً لتطويــر العلاقــات الحوارية مع المســلمين بمنطقتنــا، أذكر منهم على ســبيل المثــال ريف ورولهه، وهو منســقنا بالنســبة إلى الأمــور المتعلقة بالإســلام، وهــو يتعاون مــع المنظمات الإســلامية ـ مثلاً ـ حول إعداد دورات تكوينية للقساوســة والأئمة. وإن لاهوتيينــا ليتعلمــون بعضهم من بعــض في هــذه الــدورات التكوينية وينخرطون في الحوار الــذي يحتاج إليه مجتمعنــا. والحال أنه صارت توجد الآن عدة منشــورات حول هذا الموضوع نشرت من لدن الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية، على حد سواء.
- إن عالمنا يحتاج إلــى إقامة نقاش بين مختلف الشــركاء وبين مختلف الثقافات وبين الشــعوب وبين الديانات. ولقد صرنــا أقرب بعضنا الى بعض، وعلينا أن يقترب بعضنا من بعض أكثر فأكثر.

وإننا لنحيا فــي بيت بشــري واحــد، وإن العولمة والتواصــل العالمي والتعالق الاقتصادي لا يسمحون لأي منا أن يبقى منعزلاً في غرفته الخاصة.

وليــس يعني هــذا أن علينا أن نهجــر معتقدنا الدينــي وإيماننا وقيمنا وتوجهاتنا، وإنما يعنــي بالضد من ذلك أن علينــا أن ننفتح على المحاورة واللقاء؛ فالرب الذي له وحده الدوام خلقنا بشــراً لكي نكون شــهداء على خيريته وعلى محبته. ولهذا الداعي، دعونا نبحث أجمعين عن ســبل للدفاع عن حقوق الإنسان وعن التسامح.